٤٥٨

أفكار غيَّرت العالم

٨

جان جاك روسو
الملهم

بقلم :

د. منال القاضى

الطبعة الثانية

دار المعارف

رقم الإيداع	٢٠١٢ / ١٦٦٩٢
الترقيم الدولي	ISBN 978 - 977 - 02 - 7660 - 0

٣٣/ ٢٠١٢/ ٧

طبع بمطابع دار المعارف

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧- فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

مَنْ هو جان جاك روسو ؟

- وُلـدَ فِـى جنيـف عـام ١٧١٢ وكانَ أبـوهُ يعملُ فِـى صناعةِ السَّاعاتِ.
- لهُ العديدُ منَ الكتبِ أهمهَا :

العقْد الاجتماعى – اميل – هلويزة الجديدة – الاعترافات.

* له بعضُ المؤلفات المُوسيقية منها :

أُوبرا ربّات الفنون الأربع.

أُوبرا عرّاف القرية.

- تُوُفى عام ١٧٧٨.

مِنْ أقوالِ جان جاك روسو المأثورة

- وُلِدَ الإنسانُ حرًّا ولكنهُ فِى كلِّ مكانٍ مُكبل بالأغلالِ.
- إنَّ الحريةَ طعامٌ قويٌّ ولكنهُ طعامٌ يحتاجُ إلى هضْمٍ متينٍ.

تأمّلَ إسحقُ روسُّو صَانع السَّاعات إبدَاعاته، كانَ يؤمنُ أنَّ الساعاتِ ليستْ مُجرد آلات تذكرنَا بالوقتِ، ولكنهَا تُحف جميلةٌ يبتكرهَا وَيبثهَا شيئًا منْ نفسه. أمسكَ - بحنانٍ - إحدَى السّاعات، لقد اسْتوحَى تصميمَهَا منْ زهرةٍ بريَّةٍ، أَمَّا المجاورةُ لهَا فاسْتوحاهَا منْ رحلته إلى الآستانة عاصمَة الدوْلة العثمَانية. سرحَ بعيدًا، تخيَّل نفسهُ يتجوّلُ فِى قصورِ السلطانِ العثمَانى، بينَ النَّافُوراتِ، وَالثرايَا البلُّورية والجدرَان المرْمريَّة، وَالوسَائد المطعَّمَة بِالذهَب وَالفضَّة، تقودهُ إحدَى الجوَارِى التِى يفوحُ منهَا عَبقُ العطورِ الشرقيَّة، كَمْ كانتْ فَاتنة ! لقدْ ألهمهُ غموضُ الشرقِ، طوَال ستِّ سنوَاتٍ قضَاها فِى الآستَانَة، فصنعَ أروعَ ساعَاته لحرِيم السُّلطَان.

أفاقَ منْ خيالاته عَلى صوتٍ يُشبهُ النَاقوس، وجدَ نفسهُ - فجأَةً - فِى مُواجهةِ عينيْنِ زرقاويْنِ ووجهٍ شاحبٍ.

صرَخَ إسحق فِى فزعٍ :

«شبحٌ.. شبحٌ»

أتاهُ صوتٌ مألوفٌ :

« لستُ شبحًا، أنَا شقيقُ زوجتكَ، ألا تكفُّ عن الأوهَام يَا إسحق ؟ ».

حاولَ إسحق تمالُكَ نفسهِ ولكنهُ انفجرَ غَاضبًا، وهوَ يتذكرُ روعةَ خيَالاته.

« ماذَا ؟ مَا الذى أَتَى بكَ الآنَ ؟».

تنهَّدَ الرجلُ فِى يأسٍ وَتمْتمَ : « لاَ أملَ يُرجى منكَ ».

صرخَ إسحق : « مَاذا.. مَاذا قلتَ ؟ »

نظرَ إليهِ شقيقُ زوجتهِ بنصْفِ عيْنٍ وقَالَ : « لاَ شىْء ».

ثمَّ انفجرَ ضاحكًا، وخَبَطَهُ عَلى كتفهِ : «لقدْ رزقتَ بولدٍ».

تمتمَ إسحق كالمذهُولِ

« وَلد . . وَلد».

طوَّقهُ شـقيقُ زوجتهِ بذرَاعيْه. «نَعَمْ.. نَعَـمْ.. إنهَا المرّةُ الثانيةُ التِى تغدُو فِيهَا يا إسحق»

سـرحَ بعينْه بعيدًا وقالَ « إنهَا نعمةٌ، وشعورٌ مدهشٌ أَنْ ينتمِى إليكَ ملاكٌ صغيرٌ، هل اخترتَ له اسمًا ؟ ».

لَمْ يَرُد إسـحقُ وَاندفعَ إلى حيثُ ترقدُ زوجتهُ، وجدَ الطفلَ بينَ أقمطتهِ البيضَاءِ يلوحُ للعالمِ بيديْهِ الصَّغيرتيْنِ، اقتربَ منهُ ولوّحَ لهُ بدورهِ وَهمسَ فِى أذنيْهِ: «أهلاً جَان».

قضَى جان جاك روسُّو السبعَة والثلاثينَ عامًا التَّاليةَ لمولْدهِ حياةً صعبةً مَليئة بالتجَارب المتنوعَة، وَالمحَاولات الدؤُوبة للنجَاح، وهوَ الآنَ يسـيرُ وحيدًا فِى شَوَارع بَارِيس، فِى طريقه إلى قلعَة فينسين حيثُ سجنَ صَديقه الكَاتب الفرَنسى ديدرو؛ بسببِ عبارَات وَرَدت فِى كتابهِ (رسـائل إلى المكْفُوفينَ). لاَ يُؤنسهُ سوَى ذكريَاتُهُ المَليئةَ بالألـم، والجريدة التـى يصدرهَا الماركيز دى فرانـس. وَلكنْ مَاذا عنِ السَّـعَادة ؟ لقدْ حظىَ - أيضًا - بلحَظاتِ سَـعَادةٍ. كانتْ تبهجهُ الطبيعَةُ، فيقضِى أفضلَ أوقاته فى أحضانهَا مُتَجولا على قدميْهِ. لقدْ زارَ أماكنَ لا تعدُّ، تنقَّلَ بينَ لُيون، لُوزان، فيفى نيوشـاتيل، باريس، وَأمَاكن أُخرى كَثيرة.

سألَ نفسَهُ سؤالاً مُبَاغتًا. « مَاذا تُريد أنْ تكونَ ؟ ».

لا يزالُ متخبطًا بينَ رغبتيْنِ : الأُولى أنْ يصيرَ كاتبًا، وَالأُخرى أَنْ يغدُو موسـيقيًّا. بدتِ الرغبةُ الأخيرةُ أقربُ إلى التحقيـق، فقدْ ألفَ بالفعْل أُوبرا بعنوانِ (ربّات الفنُون الرشيقَات)، وَقدْ حقَّقتْ بعضَ النجَاح.

مرّت بهِ عربةٌ مُزَينة بالشرائطِ وَالورُودِ، يقودهَا فرسَانِ قويَّانِ. شهقَ : « مَا هذَا ؟ ».

كانتْ هناكَ فتاةٌ فاتنةٌ تطلُّ مِنْ نافذتهَا، هُيء إليه أنهَا تبتسمُ لهُ، أَحْنى رأسَهُ فِى سعادةٍ، وتابعَ العربةَ حتَّى اخْتفت، ثُمَّ قالَ فِى سرِّه: «أعدكِ يَا آنستِى أننِى سأكونُ قريبًا نجمًا فى سَمَاء باريس».

فركَ الجريدةَ بينَ يديْهِ، ثمَّ عادَ وخاطبَ نفسَه، «ماذَا تقصدُ بقولكَ نجْم يا روسُّو، هَلْ تقصدُ مُوسيقيًّا أَوْ كاتبًا؟».

زفرَ زفرةً حارةً وقالَ: «النجوميةُ لاَ تهمُّنى، إنهَا فِى أحيانٍ كثيرةٍ تكونُ خَادعةً وَغير حَقيقية، أريدُ أنْ أكونَ مُؤثرًا، وليسَ مجَرد شهيرٍ غبىٍّ، أريدُ أنْ يكونَ لِى دورٌ فِى تنوير العقُول وَإيقاظِ الضَّمَائر».

قلَّبَ فِى صَحِيفته، وَقرأ بعضَ العناوينِ الرئيسيَّةِ، وثَمَّ فجأةً أوقفهُ شىءٌ تَمْتم. «آه مَا هذَا؟».

قرأَ فِى تمهُّلٍ، الإعلانَ الذِى توسَّط إحدَى الصفحَات، كانتْ أكاديميّةُ ديجون تعلنُ عنْ جائزةٍ لأفضَلِ مقالٍ موضُوعه (هلِ العلُوم وَالفنونِ أدّت إلى تقدُّمِ الأخلاَقِ أوْ فسادهَا؟).

لمْ يَهتم فِى بَادِىء الأمر، كانَ يُفكر فِى صَديقه ديدرو، ويحاولُ الوصُول إلى طريقةٍ يخرجهُ بهَا منَ السِّجنِ.

وَلكنهُ فجأةً توقّف عنِ السـيرِ، وحدّق فِى الإعلانِ، وردّد السؤالَ الذِى طرحتهُ المسـابقةُ مرّاتٍ. «هلِ الفنُون والعلُوم أدّت إلى تقدُّم الأخلاقِ أَوْ فسادهَا ياروسُّو ؟ هيَّا أُريد إجابةً، أريدُ إجابةً منكَ الآن».

شعرَ بخيالاتٍ تطوفُ حولهُ، وكلماتٍ بليغةٍ تخترقُ عقلهُ، وأضوَاءٍ كثيرةٍ كثيرةٍ. وأخذَ يتمْتمُ: « مَا هذَا ؟ مَا هذَا ؟ »

كانَ العـرقُ يتصبّب مـنْ جبهتهِ والدموعُ تملأُ عينيْه. اسْـتلقَى أسـفلَ أولِ شَـجَرةٍ قَابلتهُ وحَاول أنْ يهدَأ. أمسـكَ بالجريدةِ وقرَأ الإعـلانَ ثانيةً، وفجـأةً تفجّرتْ دَاخلـه رغبةٌ فِى الكتابـةِ، وَدَارت العديدُ منَ الأسـئلةِ فِى رأسـهِ، لقدْ وُلدنَا بطبيعتنَـا أخيارًا، فكيفَ نتعلّم الكَذبَ، والرياءَ والغرورَ، لقدْ خلقَ الله الناسَ مُتسـاوينَ فِى الحقُوق والوَاجبَات، فمِنْ أينَ يتولّد الظلمُ ؟، فيأخذُ الأقوَى وَالأكبرُ سـلطانًا مِنْ حقِّ الأضعفِ، لماذَا نسمحُ بتفاوُتِ الثروَات بينَ الناسِ دونَ ضَابـط، فيملكُ عددٌ قليلٌ مـنَ الناسِ ثروَاتٍ ضخمةً ولا يملكُ غَالبيتهم شيئًا ؟.

لقدْ لمسَ بنفسهِ هذَا، حينَ عملَ فِى إحدَى المرَّات كخَادمٍ لدَى أسرةٍ ثريَّةٍ. لقدْ شعرَ بالفوارقِ الشديدةِ التِى تفصلُ بينهُ وبينَ سَادته

فِى ذلكَ الوقتِ، كانَ هوَ وَباقِى الخدَمِ كَائنات غيْر مَرْئية بالنسبةِ إليْهم، وكانَ السادةُ الذينَ تعاملَ مَعَهم مُنتفخونَ بمَا وَرثُوه منْ ثروَاتٍ وَألقابٍ، لاَ بمَا بذلُوه منْ مجهُوداتٍ حَقيقيةٍ وَامتلكُوه مِنْ مواهبَ، وَاكتسبوهُ منْ علمٍ وَمعْرِفةٍ.

كانَ أَكثْر ثقافَةً منْ كثيرٍ منْهم، ولكنَّ هذَا لمْ يحسنْ منْ نظْرَتهم إليْهِ. كانَ يشعرُ بالمهانةِ كُلَّ يوم، وَلمْ يكنْ يخففُ منْ هذَا الشعورِ سوَى أنْ يختلىَ بنفسهِ ويتجولَ وحيدًا فِى أحضَانِ الطبيعَةِ. حينذاكَ يشعرُ بحريتهِ، وَينقلبُ حالهُ منْ خادمٍ إلى سيدٍ لنفسهِ.

لمْ يتذكّر جان جاك روسُّو كمْ مرَّ عليهِ منَ الوقتِ وهوَ جالسٌ أسفلَ الشجرَةِ. أفاقَ ليجدَ نفسَهُ فِى مواجهَةِ هرّةٍ صَغيرةٍ. كانتْ تنظرُ إليْه بعينيْنِ عَميقتيْنِ سألهَا : « مَاذا ؟ ». ماءتْ مُواءً خَافتًا وَاخْتفتْ.

فكّر « هلْ أَرادتْ إبلاغهُ رسالةً مَا ؟ ».

لمْ تعكسُ عيناهَا شيئًا كالجوعِ أوِ الغضبِ أوِ الجشَعِ.

خاطبَ نفسهُ ضَاحكًا.

« لعلهَا تُريد أنْ تقولَ، أنا حرّة، أنا أكثرُ حريّةً منكَ ».

تمكّن أَخيرًا منْ مواصَلة السيْرِ إلى قلعَةِ فينسين.

استقبلهُ ديدرو فِى فرحٍ، ولكنهُ لاحظَ شحوبَهُ فسألهُ : « مَا بكَ يا روسو ؟ ».

حدّق روسُّو فِى صديقهِ بعينيْنِ زَائغتيْنِ ولمْ يرُدّ مباشرةً وَلكنهُ ردّ أخيرًا : « لاَ أدرِى يَا صدِيقى العزِيز، ولكنىِّ أشعرُ بأننى لنْ أعودَ كمَا كُنت ».

أجابهُ ديدرو فِى مرحٍ «وَلاَ أنَا»

ثمَّ عادَ واسْتدركَ :

« وَلكنىِّ سَجينٌ فقدَ حُريتهُ، ويشتاقُ اليهَا ويُعانِى الظلمَ، فماذَا عنكَ ؟ ».

دارتْ عينَا روسُّو فِى جنباتِ محْبس صَديقهِ وَسألهُ فِى تهكُّمٍ :

« وهلْ هذَا سجْنٌ، السجنُ الحقيقىُّ ليسَ هنَا وَلكنْ هناكَ ».

أشارَ روسُّو بعيدًا إلى خارجِ الجدرَان. وَقبلَ أَنْ يعترضَ ديدرو، بادرهُ روسُّو قائلاً: « سَأحْكِى لكَ قصةً تؤكدُ لكَ أننَا مسْجُونونَ فِى الخَارج مثلكَ تمامًا يا ديدرو ».

ابتلعَ روسُّو ريقَهُ وصمتَ دقائقَ كأنهُ يحاولُ إيجَاد بدَاية مُناسبةً ثُمَّ قالَ « لمْ تكنْ حيَاتى سَهْلة، لقدْ أطلعتكَ عَلى فُصولٍ منهَا، تُوُفيت أمِّى فورَ ولَادتى، وَاختفَى أبى منْ حياتِى بعدهَا بسنوَاتٍ قليلَة، أنا

رجـلٌ عصَامىٌّ اعتمدتُّ عَلى نفسـى منذُ وقـتٍ مُبَكر، عملتُ كمَا تعرفُ فِى مهَنٍ كَثيرة، حفّار زنكوجرَاف، مُوسيقى، مُوَظف، سكرْتير قنصُل، خَادم، مُعَلم، لقدْ تعاملتُ معَ مُختلف الطبقاتِ الاجتماعيّة، أكلـتُ الطعـامَ الفاخرَ يومًا، وفِـى آخَر لمْ أكنْ أجـدُ قوتَ يومِى. تعرضتُّ للظلْم والتجاهُل، ولمْ يكنْ لِى سَندٌ فِى مواجهَة ذلكَ سوَى الاسـتغرَاق فِى تأمُّل الطبيعَة الخلاّبة منْ حوْلى، وَاكتشـفتُ هناكَ بينَ الأشجَارِ وَالزُّهور وَأغانِى الطُّيور، إنَّ حضارتنَا عقلٌ بلاَ رُوحٍ ».

سكتَ روسُّو، ونظرَ فِى عيْنى صديقه كأنمَا يحاولُ اكتشَاف وقْع كلماتـه عَليه. بدَا عَلى ديدرو الاهتمَام وهزّ رأسَـهُ ليشـجعهُ عَلى قولِ المزِيد. فقالَ روسُّو

« لقدْ عشـتُ حيـاةً قريبةً منَ النـاسِ رأيتُ بِعيْنـى معَانَاتهم، وَاسْتمعتُ إلى شَكْواهم، كنتُ دائمًا واحدًا منْهم ».

نظرَ إلى ديدرو « لمْ أحْكِ لـك القصةَ بَعْد، بطلهَا عجوزٌ انحَنى ظهرُهُ أمَّا كيفَ، التقيتُ به، فذاتَ يوم وأنَا فِى إحدَى جولاَتى، اشتدَّ بىَ الجوعُ، تلفتُّ حولِى باحثًا عنْ طعامٍ، لمحتُ هذا الرجلَ فتبعتهُ إلى كُوخه ».

توقَّفَ الرجلُ والتفتَ نحْوى وَسَألنى بنبرةٍ خَائفةٍ مَاذَا تُريد ؟.

كانَ يرتجفُ وجبينُهُ يتصبَّبُ عرقًا، أشفقتُ عليه، وقلتُ لهُ ما أنَا سوَى عابرِ سبيلٍ جَائعٍ. نظرَ إليَّ الرجلُ مُتشككًا، ثُمَّ قالَ ليسَ عندِى سـوَى قليلٍ منَ الطعامِ وهوَ يَكْفِينى بالكادِ. ولكنهُ تراجعُ بسـرعةٍ وأشـارَ إلىّ كَىْ انتظرَ قائلاً يُمكننى تقاسـمهُ معكَ، دخلَ الكوخَ ثمّ عادَ إلىّ بقطعةِ خبزٍ وبعضِ اللَّبنِ.

تأملَنِى وَأنَا آكلُ مَا قدمهُ إلىّ فِى نَهَم، وبعدَ أنِ انتهيتُ سـألنِى عنْ نفسـى. تكلمتُ معهُ كمَا لمْ أتكلّمْ مـعَ أحدٍ. عرفَ الكثيرَ عنْ أحلامِى وَآمالـى، كانَ مثلِى وحيدًا، تفاهمْنَا بسـرعةٍ، ودعَانى إلى دَاخل كُوخـهِ الدَّافئ. زالَ عنهُ الخوفُ وأظهرَ لِى وجههُ البشُـوش، وسـألنِى هلْ تريدُ المزيدَ منَ الطعامِ ؟. كنتُ مَازلتُ جائعًا وَلكنىِّ أجبتهُ : شكرًا لكَ..

ولكنهُ كانَ يشـعرُ بمدَى جُوعى، فأزاحَ كومةً منَ القشِّ، ورأيتُ شيئًا غريبًا لمْ أتوقعْهُ. كانَ القشُّ يُخفى بابًا سحريًّا.

فتحهُ الرجلُ العجوزُ، واختفَى خلفهُ بعضَ الوقتِ، ثُمَّ عادَ ومعهُ بعضُ الحلْوَى وَالزُّبد وقطعَة لحمٍ وَخبزٍ قَمْح. وضعَ كلَّ هذَا أَمَامى، وَاعتـذرَ لِـى لأنهُ لمْ يفعلْ هـذًا فِى البدايةِ. قالَ لِـى ظننتكَ أحدَ

جَامعى الضرَائبِ، أنا دائمًا أُخفى أفضلَ طعَامى خوفًا منْ أنْ يفرضَ جَامعُوا الضرَائب عَلىّ ضرَائبَ مضاعفةً، وكمَا تَرى فأنا رجُل فقيرٌ».

سكتَ روسُّو ونظرَ إلى صَديقه كأنمَا ينتظرُ رأيَهُ. كانَ ديدرو مُطأْطِىءَ الرأسِ، فبادرهُ روسُّو قائلاً: «لمْ تخبرْنى برَأيكَ يا ديدرو، هلْ تَرَى مثلَ هذَا الرجُل حرًّا؟». هزَّ ديدرو رأسهُ ولمْ يردَّ فقالَ روسُّو:

«إنَّ هذَا الرجلُ وَأمثالَهُ أسرَى للظلْم، إنهُ ليسَ حرًّا وهوَ مثلكَ «يَا ديدرو» سَجين دَاخل خوفهِ منْ جُبَاةِ الضرائب، وهوَ فى كلِّ ليلةٍ يَبْكى حَظَّهُ، ويسألُ الله، لماذَا يَا ربِّى لا أنعمُ بِالحرِّيةِ وَقدْ خلقتنى حُرًّا، هلْ تفهمُ مَا أريدُ قولهُ يا صَديقى؟».

هزَّ ديدرو رأسَهُ فى أسًى وقالَ بصوتٍ خافتٍ: «نَعَمْ.. نعم أفهمهُ، ولكنْ قُل لِى مَا الذى فَجّرَ كلَّ هذه التساؤُلات وَالأفكَار دَاخل رأسكَ اللَّيلة؟».

مَرَّر روسُّو الجريدةَ إلى صديقهِ وهوَ يشيرُ إلى الإعلانِ المنشُورِ بهَا وقالَ: «هذَا»

تناول ديدرو الجريدةَ وقرأَ فِىْ تمهُّل، وقالَ: «إنهَا مُؤَسسةُ ديجون تعلنُ عنْ مسَابقةٍ أدبيّةٍ» وافقهُ روسُّو. «نَعَمْ وَلكنْ مَا فجَّر

كلَّ هذهِ التساؤُلات دَاخِلى هوَ موضُوع المسَابقةِ ».

نظرَ ديدرو نظرةً خاطفةً إلى الجريدةِ وقرأَ بصوْت عَالٍ « هلِ الفنونُ والعلُومُ أدَّت إِلى تقدُّم الأخلاَقِ أَوْ فسادهَا ؟ ».

قالَ روسُّــو بنبرةٍ واضحَــة : « نَعَمْ .. نَعَمْ، لقــدْ فجّر الموضُوعَ داخلِى رغبةٌ فِى كشْفِ زيْفِ الحضَارةِ التِى نحيَاهَا ».

صاحَ ديدرو. « إنهَا فكرةٌ رائعةٌ ».

قالَ روسُّو فِى دهشَة. « ولكنكَ منْ أشدِّ المدافعينَ عنِ الحضَارةِ التِى نحياهَا الآنَ ؛ لأنهَا ترفعُ مِنْ شأنِ العقلِ ».

وَافقــهُ ديدرو وقالَ : «نَعَــمْ .. نَعَمْ .. وَلكنى أتفقُ معكَ فِى أنهَا حضَارة بلاَ قلبٍ، سيكونُ قولُ هذَا شجاعةً ».

سألهُ روسُّو : « إذنْ أنتَ تؤيدُ اشترَاكى فِى المسَابقةِ، كىْ أعرضَ وجهَــةَ نظرِى، وَلأوضــحَ كيــفَ أنَّ حضَارتنــا إذَا تجَاهَلت الحدسَ والخيالَ والمشاعرَ، لنْ تُؤدى إلى سعَادةِ الإنسَان ».

وَافقهُ ديدرو. « إن وجهةَ نظــرِكَ، تختلفُ معَ وجهةِ نظر أغلبِ المثقفينَ الحَاليينَ، ومعَ وجهَة نظرِى شــخصيًّا، وَلكن منْ حقِّكَ أَنْ تعرضَ مَا تُؤمن بهِ وَتدافعَ عنهُ بالبرَاهينِ، فالاختلافُ يَا صَديقى فِى

الـرَّأى، لا يتنافَى معَ الصداقةِ، بلْ منَ الممكنِ أنْ يُظهرَ جانبًا مهمًّا لا يراهُ أحدٌ، وينبهَ إلى ضرورَةِ الالتفاتِ إليه ».

فورَ عودتهِ، شـرعَ روسُّـو فى كتابةِ مَقَاله، الذى أوضحَ فيه أَنَّ العلمَ بلاَ أخلاقٍ، لنْ يُؤدى إلىَ سعَادةِ الإنسَان.

لمْ يكنْ روسُّـو يكتـبُ منْ أجْل الفوزِ كانَ يقولُ لنفسـه عقبَ كلِّ فقـرةٍ « الفوزُ أمرٌ رائعٌ، ولكـنَّ التعبيرَ عمَّا أؤمنُ به، هوَ غَايتى الحقَيقيَّة منْ كتابةِ هذَا المقالِ، منَ الرائعِ أنْ تُتاحَ للمرْءِ فرصَة قولِ رأيهِ بصرَاحةٍ وشجاعَةٍ ».

وَكلمَا سـرحَ بعيدًا ليرتـبَ جملةً تاليةً، كانَ يفكـرُ فى المعْنَى الحقيقىِّ للسعادةِ، هلْ تتحققُ بالعلمِ وحدهُ، دونَ وجودِ أخلاق أوْ ضَمير، ودونَ أنْ يتعاطفَ الإنسَانُ معَ أخيهِ الإنسَان، ويقدرَ ضَعْفَه ويقدِّمَ إليهِ المسَاعدة.

كانَ جان جاك روسُّو يعيشُ فى ذلكَ الوقتِ بدايةَ الثورةِ الصِّناعيةِ فى أوروبَّا، وشـاهدَ بنفسـه كيفَ كانتِ الآلةُ تحلُّ مكانَ البشرِ فى أشياءَ كثيرةٍ. لقدْ جعلتِ الآلةُ الحيَاةَ أَيْسَر، ولكنْ مَا فائدةُ ذلكَ إذَا أدَّى إلىَ تكاثُرِ المظالِم، وخاصَّة بينَ الفقراء ؟!

ختمَ مقالهُ قائلاً : « العلمُ دونَ أخلاقٍ فَخٌّ ».

فازَ جان جاك روسُّـو بالجائزةِ، وكانتْ عبارةٌ عنْ مِيدالية ذهبيّة وثَلاَثمائة فرنْك. وَأحدثتْ آراؤُهُ ضجةً فِى صَالونات بَاريس الأَدبيَّة.

وَناقشَ الجميعُ مُحتوى المقَال، وهلْ حقًّا لاَ يحققُ العلمُ وحدهُ سعادةً وَرَخاءً البشَر ؟!

لقدْ وجدَ روسُّـو نفسهُ شـهِيرًا بينَ يوم وليلةٍ، وسَاعدهُ صديقُهُ ديـدرو فِى نشـرِ المقالِ. ولكنهُ لـمْ يحصلْ منْ جرَّاءِ نشـرهِ عَلى أجرٍ مُجزٍ.

كانَ روسُّـو يكسبُ عيشَهُ منْ نسْخِ كراسَـات المُوسِيقىَ. ورغمَ نجاحهِ ككاتبٍ ظلَّ التأليفُ المُوسـيقى يَسْـتهويهِ، فألَّفَ مُوسيقى وَكلمَاتِ أُوبرا بعنوَان (عرّاف القرية). وعرضهَا أمامَ الملكِ الفرنْسِى لُويس الخَامس عَشَر، وأثارتْ إعْجَابه، وَحدّد لهُ موعدًا للقائهِ. وَلكنَّ جانْ جاكْ روسُّـو مَرِضَ ولـمْ يتمكَّنْ مِنْ إتمَام هـذَا اللِّقاء. ولامهُ صديقُهُ ديدرو عَلى ذلكَ قائلاً:

« لقدْ فوَّتَ فرصَة ذهبيّة يَا روسُّـو، كانَ منَ الممكنِ أَنْ يعطيكَ الملكُ راتبًا شهريًّا، ويُريحكَ منْ نسْخِ كراسَات المُوسِيقى ».

ضحكَ روسُّـو وقالَ لهُ: « لاَ عليكَ يا ديدرو، لقدْ حبَانى الله بمَا هـوَ أعظَمُ منْ مَالِ الملـكِ، أعطانِى الموهبةَ، والقـدرةَ عَلى فهْم

الناسِ وَالاحسَاس بهمْ وَالتعبيرِ عَنْهم، وَأيضًا القدرَةَ عَلى الاستمتَاعِ بمَا خلقهُ منْ جمَال ».

تنهَّدَ روسُّو وسرحَ بعيدًا وابتسمَ كأنهُ تذكّر أشيَاء مَسَّت قلبَهُ

« إيـه يَا صَديقى، لقدْ كنتُ محظوظًـا فعْلاً أنْ أُولد فِى جنيف، وأستمعَ إلى زقزقَةِ طيورهَا، وَأتنزَّه بينَ المرُوج المدْهشة ».

ابتسـمَ ونظرَ فِى عَيْنى صديقه : « لقـدْ كانَ أبى وأمِّى يحملاَن لقـبَ مُوَاطن، لا يوجدُ حكمٌ مَلكى فـى موطِنى، فجينيف تحكمهَا قوانيـنٌ يَتفقُ عليهَا المواطنونَ، يُدلونَ بأصْوَاتهم ليعبِّرُوا عنْ رَأيهم فيهَا بحريَّة، ومَا إنْ يُجيزوهَا حتَّى يخضَعُوا لهَا طوَاعيَة ».

وَفجأةً قفزَ روسُّـو منْ مقعـده كأنمَا عثُر عَلى فكرةٍ مُدهشـة وخاطبَ نفسَـهُ بصوتٍ عالٍ قائلاً. « تلكَ هِى الحريةُ التِى يجبُ أنْ تسودَ العالمَ ».

نظـرَ إليهِ ديدرو باندهَـاشٍ وَلمْ يفهَمْ مَا الـذِى يَعْنيهِ صديقُه الحَالم ؟!

تامَّـلَ روسُّـو البحيـرةَ الممتـدةَ أمامـهُ، بهرتـهُ زُرقـة المياهِ وَصفائهَا، فكَّر. « أخيرًا لقدْ عَاد إلى وطنهِ جنيف ».

كانـــتْ جنيف دائمًا تلهمهُ. قــررَ أنْ يعودَ إليهَا، بعدَ أَنْ ســئمَ صخبَ باريس. لقدِ اســتقبلهُ أهلُها بترحَابٍ، كانَ يرَى فيهمْ نموذجًا للمواطنينَ الشرفاءَ، الذينَ لمْ يُلوثهم الجشعُ والكذبُ والرياءُ.

لقــد رَبَّتهــم وَهذَّبت مشــاعرَهُم الطبيعةُ الخلاّبــة، اقتربَ منَ الشَّاطىء ولمسَ بأصَابعهِ زهرةً بريَّةً، هُيءَ لهُ أنهَا تهتزُّ طربًا لقربهَا منَ البحيرةِ السَّاحرةِ، عادَ لتأمُّلِ المياهِ الصَّافيةِ وَفكَّر.

« لقــدْ خُلق الإنســانُ فِى صفاءِ هَــذهِ البحيرَةِ، ولكــنَّ القوانينَ الظالمَةَ، والظروفَ غيْر الموَاتية هِىَ التى تُلوثه ».

كانــتْ زيارةٌ قصيرةٌ ردّت إليهِ نفسَــهُ بعدهَا عــادَ إلى باريس، ليجدَ أكاديميَّةَ ديجون أعلنتْ عنْ مُسابقة أخرَى موضوعهَا:

(مــا الأَصْل فى عدم المســاواةِ بينِ البشــرِ وهلْ يقــرهُ قانونُ الطَّبيعَة ؟).

خاطبَ روسُّو نفسَهُ بعدَ أنْ قرأ الإعْلان.

« حقًّا مَنِ الذِى وضعَ الفروقَ بينَ البشرِ ؟ ».

اســتغرقَ روســو فِى التفكيرِ، كانَ يقْضِى الليالِى مُسهدًا مُحَاولاً الوصُول إلى إجَابةٍ. فكّرَ. «هناكَ بعضُ الفروقِ الجسمَانيةِ وَالعقليةِ،

ولكنْ هلْ يعنى هذَا أنْ يستغلَّ الأقوَى الأضعَف، وهذَا الضعيفُ مَنْ ينصرهُ، مَنْ يُعطيه حَقهُ ؟ ».

كتبَ بعضَ الجملِ التى لمْ تعجبْهُ فتوقّفَ عَنِ الكتابةِ وَاسْتمرَّ فِى التفكيرِ. « لقد التقَى بنفسهِ بكثيرٍ منَ النبلاءِ، الذينَ لاَ يمتلكونَ موهبةً أوْ علمًا، بلْ كثيرٌ منْهم يتسمُونَ بالجهلِ، وقدْ آلَ إليْهم الشرفُ والمكانةُ بالوراثةِ فهلْ هذَا عدْلٌ ؟ ».

وَفجأةً لمعَتْ فِى عقلهِ فكرةٌ « إنَّ القوانينَ الفاسدةَ هِىَ التِى تصنعُ الفروقَ بينَ البشر ».

لمْ يَدْرِ كم مرَّ عليْهِ منَ الوقتِ، ولكنهُ أفاقَ بعدَ أنِ انتهَى مِنْ كتابةِ المقَال.

لمْ يفزْ مقالُ روسُّو هذه المرَّة، ولكنهُ أحدثَ نقاشًا وَاسعًا بعدَ نشْرِه. بدَا واضحًا أنَّ روسُّو ينادِى بأفكَارٍ تختلفُ عَنْ مُفكرى عصرِه..

وَكانَ روسُّو يقتربُ منَ الانتهاءِ مِنْ كتابةِ عملهِ العظيمِ، وهوَ كتابُ العقدِ الاجتمَاعىِّ.

صدرَ كتابُ العقدِ الاجتماعىِّ، ليثيرَ روسُّو جدلاً كالعادةِ (نحنُ الآنَ داخلَ إحدَى صَالوناتِ بَارِيس الأدبيّة لنستمعَ إلى مَا يُقال).

قالَ أحدُ البارونَات المتأنقينَ وهوَ يلمسُ مَقبض سيفه الذَّهبى «روسُّـو هذَا ليسَ سـوَى هَمَجى، فِى البدايـةِ يهاجمُ الحضَارةَ، ثُمَّ هوَ فِى كتابهِ الجديدِ الذِى يُسَـمَّى.. نَسيتُ مَا اسْم الكتابِ منْ فضلكَ ؟ ».

أجابهُ الكُونت الجَالس إلى يسارهِ « أظنهُ العقدَ الاجتماعىَّ ».

اسـتأنفَ البارونُ كلامهُ « نَعَمْ نَعَمْ هـذَا العقدُ الاجتماعىُّ ماذَا يعْنى بهِ ؟، إنهُ ينتقدُ قوانيننَا فِى وقاحَةٍ، ألاَ تتفقونَ مَعِى، إنهُ يريدُ الفوْضَى ».

رَدَّت إحدَى السيداتُ، التِى يبدوُ عليهَا أنهَا حَاملة للقبِ لاَ يقلُّ عنْ كُونتيسَـة «روسُّـو هذَا ليسَ سـوَى حَالم، إنَّ مَـا يقولهُ ليسَ وَاقعيًّا أبـدًا . ولكنْ أَصْدقكُم القولَ كثيرًا مَا يمسُّ خَيَالى، ألاَ تروْنَ أنَّ الحياةَ فِى بَاريس الآنَ صَارت جحيمًا لا يُطاق، وتحتاجُ إلى بعضِ الخيَالِ ».

ضحكَ الحضورُ وقالَ أحدُهم « نعَم هوَ حَالم دونَ شـكٍّ وَبعيدٌ عَنِ المنطقِ وَالعقلِ، إنهُ ليسَ سِوَى مُخَرِّف، لقدْ سمعتُ أنَّ الكاتبَ الكبيرَ فُولتير مُنزعج منْ آرائه ».

وقالَ آخرُ « نَعَم نَعَم.. إنهُ غيرُ مُؤثر بالمرَّة، ولكنْ هلْ يسـتحقُّ

العقدُ الاجتماعيُّ أنْ يأخذَ نقاشنا كلَّ هذه الليلةِ، فلنناقشْ بالله عليكم آخرَ روَائعِ فُولتير » وافقَ الحضورُ بالإجمَاعِ.

وفِى نفسِ الوقتِ بعيدًا عنِ الفخامةِ وَالأرستقراطيّة، وفِى أزقّةٍ مُختلفةٍ منْ باريس، كانَ هناكَ جموعًا مُنْكبة عَلى قراءةِ العقْدِ الاجتمَاعىِّ. وهمسٌ يدورُ بينَ المغلُوبينَ يشرحُ بعضُهم لبعضٍ مَقاطعَ من الكتابِ الذى اعتبروهُ دُستورهم.

« إنهُ يقولُ إننَا - فِى الأصْلِ - أحرار ».

يعلُوا الهمْسُ « حقًا ».

يُعاودونَ الإنصَات لبقيّةِ الشرُوحِ.

« نَعَم.. نعم، وَلاَ يجبُ أنْ يحكمَ الحاكمُ إلاَّ بتفويضٍ منَ المواطنينَ، وَوفقَ قوانينَ يختارونهَا، ويصوتُونَ عليهَا بالموافقةِ ».

يَعْلُو الهمسُ « مَاذا يقولُ أيضًا ؟ ».

تقلبُ الصفحَات فِى تُؤدة، ويشيرُ إصبعٌ إلى إحدَى الفقراتِ ويشرحُ صوتٌ قوىٌّ. «إنهُ يقولُ إنهُ إذَا حكَمَنَا الحاكمُ بموَافقتنَا، فنحنُ بذلكَ نظلُّ أحرارًا ».

سؤالٌ منْ رجلٍ لهُ عينانِ عَميقتانِ

« مَاذا لوْ لمْ يُوَافق قلةٌ منَّا عَلى هذهِ القوانينِ ؟ ».

إجَابــة منْ صوتٍ وَاثــقٍ: « إنهُ يقولُ، يجــبُ إجبارهُم فِى هذهِ الحالة عَلى احترامِ القوانينِ التِى اختارهَا الأغلبية ».

يعلُو الهمسُ: « ومَا رأيهُ فِى الملكيةِ الخاصّة ؟ ».

يجيــبُ صوتٌ حادٌّ: « هوَ لا يُعــارضُ وجودَ مِلْكية خاصّةٍ، ولكنهُ يعارضُ اتساعَ الهوّةِ بينَ الفقراءِ وَالأغنياء ».

يعلُــو الهمسُ وَتتلاقى العيونُ فِى أملٍ: « انهُ كلامٌ جميلٌ، ويجبُ أن يتحققَ يومًا ».

سؤالٌ منْ أحَدِهم: « مَنِ الذِى سيقومُ بذلكَ ؟ ».

إجَابة منْ كلِّ الأصوَات « نحنُ ».

OOOO

اشــتدَّ الهجومُ عَلــى جانْ جاكْ روسُّــو، وكثرَ أعــداؤُهُ الذينَ كالُوا لهُ الاتهامَات ووصفُوه بأبشــعِ الأوصَاف، ولذلكَ قرَّر روسُّو اعتزالَ العَالَم !

اتــكأ عَلــى ذرَاعِ زوجتهِ تريــزا وتوجَّه إلى النافــذةِ ليجلسَ قريبًا منهَا. اشــتدَّت بــهِ آلامُ المرضِ. ولكنهُ تحاملَ عَلى نفســهِ وَفردَ أمامهُ الأوراقَ وَاســتعدَّ لكتابةِ اعْترافاتهِ. سيكونُ هذَا أصْدق

مَـا يُكتب، وهوَ يكتبـهُ ليردَّ عَلى مَنْ حاولُوا النيلَ مِنْ سُـمعته. قررَ أنْ تكونَ سـيرتهُ الذاتيةُ غيرُ مسبُوقةٍ، سَيقرُّ فيهَا بأخطَائهِ ونواقصِه، لنْ يصنعَ لنفسـهِ تمثالاً، لا يريدْ أنْ يُفكر فيهِ الأجيالُ التاليةُ كمَا يفكرونَ فِى تمثالٍ بديعٍ لاَ يوجدُ بهِ عَيْبٌ.

لـنْ يكتبَ حياتـهُ كمَا يفعلُ العظمـاءُ دائمًا، مَليئـةً بالمَآثرِ وَالبطُولات. يريـدُ أنْ يكتبَ حياتهُ كمَا حَدَثـت فِى الوَاقع، وأنْ يذكرهُ الناسُ كإنسـانٍ بهِ نقاطُ ضعْف وَنقـاطُ قوةٍ. حاولَ أنْ يكونَ نبيلاً ولكنَّ هذَا لمْ يعصمْهُ مِنَ الخَطأ. كانَ عَلى ثقةٍ منْ أنَّ الأجيال التاليةَ سوفَ تنصِفُهُ.

○○○○

ماتَ جانْ جاكْ روسُّـو عام ١٧٧٨ وبعدَ موتهِ بأحدَ عَشَـر عامًا قامتِ الثورةُ الفرنسيةُ، وقامَ الثوارُ برفْع كتابِ العقدِ الاجتماعىِّ، فِى شَوَارع باريس، وَقُرئت مَقَاطعُ منهُ بصوتٍ عالٍ.

وردَّدَ كثيرونَ جُملتهُ الشّهيرة «لقدْ وُلد الإنسانُ حرًّا ولكنهُ فِى كلِّ مكانٍ مُكبل بالأغلالِ».

وصرخَ الثوارُ فِى حماسٍ «لاَ أغلالَ بعدَ اليومِ يَا روسُّو».

لمْ يقتصرُ دورُ جان جاك روسُّـو عَلى التبشيرِ بالديمُوقراطية، وَلكن امتدَّ أثرهُ عَلى أجيَالٍ تَاليةٍ لهُ منَ المفكرينَ وَالفلاسـفةِ مثل الفيلسُوف الألمانِى جُوته والكاتبُ الرُّوسى تُولستُوى، والفيلسوفُ شُوبنهور وَغيره كثيرونَ.

ومَازالَ روسُّو رمزًا للحريَّةِ وَالعدالةِ.